بردوني

قيل عن (م...ن) أضحى مهيلا
هل تحرّيت أنت؟ ما نفع قيلا
... اشترى مرةً أمامي كتاباً
اسمه.. كيف تقهر المستحيلا
ومضى شاهراً له، كأمير
أمويٍّ.. يهزُّ سيفاً صقيلاً
راح يومي الى الوزارات.. يحكي
لصديقين.. سوف نشفي الغليلا

الشاعر الفضول.. والوطن كقضية وجود وانتماء

ظل الفضول بمنأى عن التناولات النقدية والتحليلية وظل نتاجه الابداعي حبيس الأدراج إلا ما ندر وما ذاع بين الناس بأصوات الفنانين، ولذلك قد يجد الباحث صعوبات عدة في تحديد الموقف الإبداعي من القضايا الوطنية الكبرى، الا ما دل سياقها ومضمونها على الحدث الوطني والتاريخي.

ومع توقف صحيفة «الفضول» عام 1953م لم يؤثر عن الفضول أي أثر إبداعي ويؤكد أحد أبنائه في مقدمة ديوانه الصادر عن الهيئة العامة للكتاب أنه هجر الشعر الى مطلع عقد الستينات من القرن الماضي، وذلك الهجران كان عن قناعة مطلقة بالتضاد بين الفن ومتطلبات وحاجات الانسان المادية ومثل ذلك شائع بين جمهور الأدباء يقول بدوي الجبل:

خُلقَ الشاعر والبؤس معا فهما خلان لم يفترقا

عبدالرحمن مراد *

ويمكن القول ان تفجر الحدث في سبتمبر (ثورة سبتمبر ٦٢) عمل على تفجير كوامن الإبداع فعاد مجراه الى مكانه الطبيعي، أي أن عودة الشاعر الفضول الى الشعر بعد أن تجددت في عوالمه الداخلية والخارجية الحياة وشعر بحاجة ذلك التجدد الى الفن فولج اليه من باب الانسانية الواسع بدءاً من قصيدته التي يمدح بها أمير الكويت حين تكفل بعلاج السيد محمد بن يحيى الوريث وهو صديق أثير للفضول ومروراً (أرض المروءات) وانطلاقاً الى عوالمه وآفاقه الفنية التي لم تتوقف الا مع توقف وجيب قلبه عام ١٩٨٢م، ولعل المتأمل في شعر الفضول يجد روحاً عمرها الله بالحب والسلام والخير والعطاء فلم تبخل على الناس أن ينالها من ذلك الحب ومن عطره وزهره كل بقدره ومكانته، لذلك اتسعت أبعاده الموضوعية الانسانية حتى الثورة حين نالتها سهام نقده رأينا سهامه لا تخرج من ظلال تلك القيم، إذ أنه في نص (أرض المروءات) يعتب على القيادة القومية المصرية التي كانت تدير الفعل العسكري والسياسي في صنعاء بعد ثورة سبتمبر أثناء مواجهة الثورة للمناوئين لها من أنصار النظام المتوكلي الذي حكم اليمن قبل سبتمبر ٦٢م يعتب عليها السقوط الاخلاقي والقيمي والسقوط الانساني، وهو السقوط الذي رأى فيه خدشاً لروح الفن وروح الجمال حيث يقول:

ها هنا في القيد من قيثارتي
نغم ينساب حزناً في وجودي
ووجودي ها هنا يشهد ما
جاء أرضي من وقاحات العبيدِ

وأيضاً خدشاً للمنظومة الاخلاقية والانسانية حيث يقول:

الألى تلقى الكرامات بهم
محنة تنطح في لؤم حقودِ
الألى جاءوا معاناة سواءً
على الأحياء أو من في اللحودِ
الألى قبلتهم أرضي بها
حزناً يحزنه كل شهيدِ
والألى جاءوا عليها جرباً
نتن الريح مرشاً بالصديدِ

ثم يعتب على الدنيا ناعياً اليها هذه المآلات غير الانسانية التي ما تفتأ تكشر عن أنياب السوء وتفتر عن طغيان جديد يمزق الجلود، ويشنق الرشد وينتهك شرف الناس:

ما لها الدنيا أتاني نصرها
كاشر السوءة كالخصم اللدودِ
خائباً يسرح مفتوناً بكلٍ
منحدر منطفئ النفس بليدِ
يصطفي للناس من يبدون في
شرف الناس كصفع في الخدود
ممسكاً منهم صكوكاً ما بها
طهر مكتوب ولا صدق سهودِ
ويرى كلّ المضيئين زناةً
وفساقاً على كلّ صعيدِ
فسقوا إذ رفضوا أن يشنقوا
رشدهم في كبره غير الرشيد
بخسوا بالرفض تقواه فهم
يستتابون بتمزيق الجلودِ
مارسوا التبشير فينا أن للسوء
في نياتها أعتى رصيدِ
وأردناها على الساحة ممقوعة
حبلى بطغيان جديدِ

هذه الصورة التي رسمها الفضول في الأبيات الآنفة حدثت في عقد الستينات من القرن الماضي وهي صورة مأساوية جسدها الحس الشعبي في أكثر من نص شعري وغفل عنها الخطاب الابداعي والاعلامي وغفل عنها تأريخ المرحلة وجل المذكرات التي صدرت لرموز الحركة الثورية اليمنية وانفرد الفضول من بين كل مجايليه ومعاصريه برسمها لتظل شاهدة على طغيان مرحلة واستبدادها وتسلطها وموقف الفضول دال على انسانيته وروحه العامرة بالحب والسلام والرافضة للطغيان والاستبداد، فهو يرفض الطغيان ولو بغطاء «ثوري حملته تباشير نصر على واقع عانى من صلفه وغلظته وطغيانه وتشرده، لكن ذلك كله لا يمنع الضمير الانساني من الحضور ومن العتاب كما نلمح ذلك في التالي:

أينها مصر لكي يخجلها
أدب الاحزان بالعتب الودودِ
هذه أحزاننا ليس بها
أذنة تخرج من صدر جحودِ
إنها مأساتنا قد جاء يصنعها
فينا حديثاً للخلودِ
مسلم أنبت في اسلامنا ألسناً
تثني على رفق اليهودِ

إذاً القضية عند الفضول قضية أخلاقية فهو يرفض إطراح الاخلاق ارضاً أو غمد سيف التسلط في عنق المولود الجديد (الثورة) ذلك أن قيمة الثورة في مشروعها القيمي والاخلاقي البديل الذي يكون للنماء والعطاء وتعزيز قيم الانتماء والخير والبذل والتطور وتفجير طاقات الانسانية الذهنية والمادية وقيمه الروحية والمادية في شموخ انتماء وعزة وكرامة انسان هذا الوطن وذلك ما تؤكده هذه الابيات:

هذه أرضي التي ما ركعت
جبهة فيها لجبّار عنيد
هذه أرضي التي حفظت
كبرها يوماً لبأس أو حشودِ
لا تؤاخي غير ما يرضي
مروءة قومي وكرامات جدودي
ليس في إصرارها الشهم وتاريخها الضخم
سوى روح الصمودِ
لم تتح في السهل والسفح وفي القمم
الشم مراداً لمريدِ
لم يعد في سوقها من باعها
سلع الغش بروح المستفيد

تؤكد الأبيات على عمق الانتماء وعلى الامتلاء الحضاري والتاريخي وعلى السؤدد والعزة وقيم الخير والنماء وهي قيم لا يمكن لها أن تتعايش مع ما يناقضها أو ما يحاول أن يمس فيها مروءة ذلك الامتلاء، ولذلك فقد شكلت مرحلة النكوص الثوري عام ١٩٦٦م ودخول كل الرموز السياسية في السجن الحربي بالقاهرة ومكوث الشاعر في سجن الرادع بصنعاء نقطة ارتكاز لمرحلة جديدة رسم معالمها في نص (صهوات العز)، حيث يقول:

صولة الايمان منها آتيا
جئتُ أرضي فوق أرضي سيدا
لا تراني مستذلاً جاثياً
فوقها أو جبروتاً مفسدا
إن في زندي ذراعاً فادياً
يحمل البأس ويأوي المسجدا
لا يسل السيف الا أن بدا
باطل في وجهها واستأسدا
فإذا واجه حقاً سجدا
وإذا مُسّ بظلم مردا
وإذا أرضاه عدلٌ أخلدا

لم يكن الفضول بمنأى عن ظلال الحركة القومية التي تبدو ملامحها في خفايا ودلالات وظلال الأبيات الآنفة، لقد كان شعار الحركة القومية يتمثل في حق الشعوب في التحرر والتمكين لنفسها في سيادتها على أرضها في شعور متعالٍ بالندية مع الآخر واعتزاز غير مبالغ فيه بشرف الانتماء كما يؤكد ذلك هذا المقطع:

يا رحاب المجد ما روّضنا
فيك أو مسكننا طول عناءِ
هاك منا قسماً يا أرضنا
خالداً في شدةٍ أو في رخاء
لن يرى الإذلال إلا رفضنا
رفض جبّار شريف الكبرياء

مثل ذلك الشعور بالتعالي والندية تعزز في الذات العربية بعد تأميم قناة السويس واشتغال الخطاب الثقافي عليه تعويضاً عن حالات الانكسار والنكوص وانتشالاً للذات من دوائر الذل والهزيمة وهو في سياقه العام لا يخرج عن التكوين العام للذات العربية التي اشتغلت على الأنفة والمجد والاعتزاز والمروءة في منظومتها الاخلاقية المتكاملة التي لم تقف عند حدود المادية الصرفة عند الفضول بل أخذت بعداً حلولياً كما يدل هذا المقطع:

كلما واجه صعب قدمي
وتحداني، تحداه وجودي
تربتي فيها تربّت أعظمي
وأتى من جودها بذلي وجودي
وبها شبّ مصراً حلمي
أنْ أرى فيها طليقُ من قيودي
ويدي من شهدائي ودمي
دفنت فيها ثرائي ورصيدي

...

كلما فادٍ مضى صافحنا
شرف الأرض فخوراً بالفداءِ
وسنعطيها ولن ترهقنا
أبداً فيها.. تكاليف البقاء
هذه الأرض التي رحنا على
صهوات العزّ فيها وأتينا
فوقها ما عرفت رايتنا
القاع يوماً أو تهاوت من يدينا
أبداً لن تنتهي فيها انتصاراتنا
الا إذا نحن انتهينا

فالتداخل الوجودي بين النماء والجود للأرض والنماء والجود للذات لم يكن يأخذ بعداً فلسفياً كما هو عند الوجوديين المتمثل في التحلل والفناء ثم العودة والنماء في الآخر باعتبار الانسان مجموعة من العناصر الكيميائية العضوية التي تتحلل في التربة ثم تعيد انتاج نفسها في الكائن بل أخذ بعداً أخلاقياً وحلولاً صوفياً تماهى في الوجد فكان عطاء الذات يتوازى وعطاء التربة باعتبارها انتماءً وجودياً به ومن خلالها يتفجر عطاء الذات:

إنه يوم عطائي فيه أغنيت تأريخي حياة ووجودا
وبه مارست جودي وأطعت سماحاتي وبرّيت الجدودا
وبه مديت كفيّ والحمت شطريّ وحطمت القيود

...

ومثل تلك المعاني نجدها بتواتر ملفت للنظر في جلّ الاثر الابداعي الذي تركه الفضول بين ظهرانينا وكأنها رسالته التي أراد أن يؤكدها وقد ثبت أنها رسالة ذات قيمة روحية وأخلاقية عالية لم يستطع أحد أن يتجاوزها وهي قاسم إنساني مشترك ويكفي أن نقرأ هذا المثال حيث يقول:

كلما فادٍ مضى صافحنا
شرف الأرض فخوراً بالفداء
وإذا زدنا عطاءً زادنا
طبعها الباذل عشقا للعطاء
وسنعطيها ولن تبهظنا
أبداً فيها تكاليف البقاء

...

فالقضية الوطنية قضية بذل وعطاء وهي قضية اخلاقية في المقام الاول وبمثل ذلك يكون قد تفرد من بين معاصريه باشتغاله على مشروع وطني ناهض قائم على المنظومة الاخلاقية وهي من الملامح الاساسية للاتجاه الفني الرومانسي يقول برتراند رسل: «إن الرومانسيين لم يكونوا بدون أخلاق.. على العكس.. إذ كانت أحكامهم الاخلاقية حازمة وحاسمة.. الا أنها تقوم على مبادئ جد مختلفة عن تلك المبادئ التي كانت تبدو صلاحيتها لسابقيهم.

إن القرن التاسع عشر كان ثورة ضد ذلك النظام القائم على الحق المقدس للسلطة، فمن جانب كانت الثورة الصناعية حيث كان كل من الرأسمالية والبروليتارية (أولئك الذين يهدفون الى الديمكتاتورية) أو (حكم الفرد) ضد الملكية والارستقراطية، وهذا الاتجاه على الأغلب لم يكن له مساس بالرومانسية لأنه يقوم على الراديكالية الفلسفية وحرية التجارة والماركسية الاشتراكية.

ولكن الرومانسية تختلف كثيراً عن ذلك الاتجاه لأنها كانت من ناحية تمثل رد الفعل كما كانت تمثل اتجاهاً ثورياً من ناحية أخرى، ذلك لأن الرومانسيين لا يهدفون الى السلام والسكينة بل يرون أن حياة الفرد تكون قوية عندما تكون مليئة بالحماس والانفعال.

ولم يكن هناك ما يجذبهم نحو الثورة الصناعية، لأنها تمثل القبح من وجهة نظرهم، ولأن جمع المال يعتبر لديهم غير جدير بالروح الخالدة، وكذلك لأن نمو الإعدادات الاقتصادية الحديثة تتدخل في الحرية إلا أن الرومانسيين فيما بعد عهد الثورة قد اتجهوا الى الناحية السياسية وبالتدريج ساروا في تيار القومية باعتبارها كأعظم مبدأ ثوري، وأنّ اكثر الرومانسيين قد اندمجوا بحماس في هذا الاتجاه لتفضيلهم إياه»، ولعل الفضول لم يشذ عن هذا الاتجاه إذا ما تأملنا نص «وطن الرجال» الذي يفتتحه بقوله:

لما أحسّ بأن في أرضي جمال
لما أرى أن ليس في وطني لممقوتٍ مجال
وأرى بأن الخير قد قتل الأفاعي والصلال
وأرى الهداية قد حفرت مدافنَ للضلال

...

وبعد أن يعدد في سياق النص أحلامه الثورية الرومنسية نجد هاجس الوحدة وهاجس الاكتمال في القيم الجمالية هي الباعث على الاستمرار في طريق الفن حيث يختتم نصه قائلاً:

لأرى بها الشهداء متكئين في فيء الظلال
يتأملون رفات طغيانٍ تدثر بالزوال
يرون ما من أجله سقطوا بأشداق النكال
خيراً يضمُّ حنانه قلب الجنوب الى الشمال
لما أرى هذا سألبس كلّ أجنحة الخيال
وأطير مرتفعاً وأنزل فوق هامات الجبال

...

«يبدو أن الجمال وجه من أوجه كل شيء، وهذا ما يعلل تنوعه الهائل وطرقه المتناقضة، ولكنه لا يسهل تبين الجمال، ما هي صفاته المميزة؟ إنها ثلاث كما يقول الفلاسفة: «التكامل، والتناغم، والوهج»..

«وابتعاد الصورة بعض الشيء عن كفاحات المرء المتجزئة يضفي على المشهد تناغماً، وهذه الميزة الثانية يشد منها النور الرقراق ونسميه الخطوط المنتشرة في الصورة كلها، وأخيراً وهج الصورة الداخلي الذي يمحو الضلال وكل قبح، يقدم لنا سلالاً من اللذائذ الصغيرة، المشعشعة ببساطة كأنها فواكه شهية.. فالجمال يسطع لا للعين فحسب بل للذهن ايضاً فهو وجه من أوجه كل شيء بما في ذلك الفكر»، ومثل ذلك نجده في جل الأثر الابداعي وقد نكتفي للتدليل بهذا المقطع من نص «حد المواسي»:

كيف ألقى بالغاً في سوئه ملَّ يوماً سوءه أو سئما
إن من ربّاه حضن الروض في الظل والانداء صلاً أرقما
سوف تبقى آفة في طبعه فاتك الناس وصنفاً مجرما
يمقت النرجس والورد وقد رضع العطر رحيقاً فيهما
ويرى في الظل والزهرة خصمين قد صار برئياً منهما
إنني لن أطلب الضوء على الأرض ممن فوقها قد أظلما
حطّه الإثم فلم يترك له إثمه في رواق قدما
غائر النفس له من نفسه حفرة من طينها قد بشما
هادمٌ ونمته السوء وأهل الشر به أن يهدما
إنما أطلب ضوءاً من سماء ومن نجم بها قد نجما
من شريف واضح ضوءه الصدق لم يتركه لغدٍ مبهما
قممي راسخُ النفس على منكبيه الفضل يبني هرما
نشط النزعة إذا سار زحف الخير كان المعلما

...

وهذا النص يتكامل مع نص آخر.. أو قل نصوصاً أخرى ترى الحياة نماءً وخيراً وسلاماً وابتساماً وارفاً وتحلم أن تتحول القوة والقدرة الى طاقات تزرع النور وتفلسف نماء الحياة وازدهارها دون أن يكون ذلك على حساب العزة والمروءة والاستقلال:

إملأوا الدنيا ابتساما
وارفعوا في الشمس هاما
واجعلوا القوة والقدرة في الأذرع الصلبة خيراً وسلاما
واحفظوا للعز فيكم ضوءه
واجعلوا وحدتكم عرشاً له
واحذروا أن تشهد الايام في صفكم تحت السماوات انقساما
وارفعوا انفسكم فوق الضحى أبداً عن كلِ سوءٍ تتسامى

...

مر معنا بيان المرحلة الاولى من حياة الفضول وكيف واجه ألمها وتشردها بالسخرية منها تكيفاً وبحثاً عن اللذة كشعور مواز يقفز على بواعث الألم الى مطلع عقد الثمانينات من القرن الماضي وهي تحاول أن تخلق وطناً بديلاً عن طريق الفن وباعث هذا الحلم هو حالة التشرد التي تجرع عذاباتها في عقد الاربعينيات وعقد الخمسينيات وبعد ثورة سبتمبر ٦٢م رأى في هذا الاتجاه الثوري قوة مليئة بالحماس والانفعال وكان الفن هو وسيلته في إحداث التوازن بين ذاته بكل أحلامها وتموجها وتطلعاتها ورؤاها وبين واقعها الذي تعيش فيه، بكل صراعاته وجموديته وانهياراته القيمية والأخلاقية وبطء حركته في التقدم والانزياح، وفيصل القول: إن الفضول هرب من واقع لم يكن ليرضيه، بحثاً عن واقع أغنى أو أفضل جسدته قصائده الوطنية كما تجلت بعض ملامحه في السياق.

* القصائد التي أوردناها للفضول في هذه الدراسة وردت كما هي في الديوان الصادر عن الهيئة العامة للكتاب، صنعاء.. وقد وجد الباحث تداخلاً بين نصوص متعددة في المضامين وملاحظات أخرى ستنشر لاحقاً..

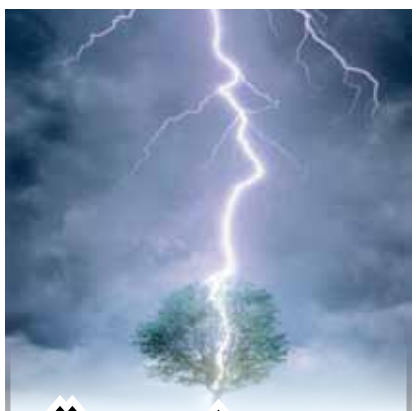

وميض برق

ومض (١)

باسندوة..
رجلٌ تجاوز السبعين من عمره
وأظنه لايزال يحلمُ بوطنٍ آمنٍ
ترفرفُ على قبابهِ وصوامعهِ..
حمائمُ
السلام
وهو يدرك الآنَ....
أنَّ لحظتنا تبدأ من حيثُ يختتمُ
عمره

ومض (٢)

حورية مشهور....
امرأة تنفعل كثيراً
وأظنها ستنقضُ غزلها
.....
فقضيتنا أكبر من ساحات التغيير....
ومأساتنا ليست في سجون الدولة...

ومض (٣)

توكل كرمان...
كجدتها
ظنّتْ جائزةَ السلام صرحاً ممرداً
من قوارير
فكشفتْ عن ساقيها
ومض (٤)
ابن مزيقيا.. علي محسن
أخبرته طريف بالمناجد
وبسبع سنين شدائد
فأيقنَ بانهيار السدِّ
.....
وحين والى الأباعد
تفرّقتْ أيدي سبأ

ومض (٥)

حميد الأحمر....
خرج علينا في زينته
وقال إنما أُوتي المال على علمٍ
عنده
وتحدث عن الحرية.. والعدالة...
والديمقراطية
فظننا أنّه ذو حظٍ عظيم
لكنّه لم يحسن كما أحسن الله
إليه
فأصبح أطلالاً...
ودمنةً.. تنعق عليها الغربان
.....
«ويْ كأنّهُ لا يفلح الكافرون»

قال ابن المعتمر السلمي:

الناس ثلاثة أصناف: أغنياء، وفقراء وأوساط.. فالفقراء موتى إلا من أغناه الله بعز القناعة، والأغنياء سكارى إلا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير، وأكثر الخير مع أكثر الاوساط، وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى..

***

< وقال الأحنف بن قيس:

من ظلم نفسه كان لغيره أظلم، ومن هدم دينه، كان لمجده أهدم.

***

< قال بعض الأدباء:

من غرس شجرة الحلم اجتنى شجرة السلم.
وقال بعض البلغاء: ما ذبّ عن الاعراض كالصفح والإعراض.

***

وقال بعض الشعراء:

أحب مكارم الأخلاق جهدي
وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً
وسرّ الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه
ومن حقر الرجال فلن يهابا

علم البديع

< البديع: لغة المخترع الموجد على غير مثال سابق..

وهو مأخوذ ومشتق من قولهم - بدع الشيء وأبدعه اخترعه لا على مثال.

واصطلاحاً: هو علم يعرف به الوجوه، والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وطلاوة، وتكسوه بهاءً ورونقاً بعد مطابقته لمقتضى الحال، مع وضوح دلالته على المراد لفظاً ومعنى.

وواضعه، عبدالله بن المعتز العباسي، المتوفى سنة ٢٧٤هـ.

ثم اقتفى أثره في عصره قدامة بن جعفر الكاتب.. وقد ألّف فيه كثيرون كأبي هلال العسكري، وابن رشيق القيرواني، وصفي الدين الحلي، وابن حجة الحموي، وغيرهم ممن زادوا في أنواعه، ونظموا فيها قصائد تعرف (بالبديعيات).

المصدر:
جواهر البلاغة/ أحمد الهاشمي